علم الرجال صياغة المعرفة المصطلحية و منهج بناء التعريف

إبراهيم قريشي . طالب دكتوراه[1]

د.حسين دحو. أستاذ محاضر (أ)[2]

جامعة قاصدي مرباح . ورقلة (الجزائر)

مخبر النقد ومصطلحاته

Abstract

As an independent field of investigation, El Hadith celebrates a respectable status amongst scholars. A status highly respected to the extent that it's created its own terminology. Nonetheless, after minute scrutiny, there seems to be a sort of mayhem in using this terminology, depending, most likely, on the context and intention. Therefore, some terms remained undefined due to the fact that their meanings were ostensible. This paper aims at deepening in the aforesaid discipline to tackle the scholars of it. Deeper still, the current study scrutinizes two basic concepts; knowledge and the acquisition of it. We attempt to define the two concepts according to their context of use, both historically and realistically. We also, to reach our desideratum, count on Quran, Sunah, and classical Arabic to define and trace the effect of the two concepts on praising and disclaiming of scholars.

الملخص:

يعد علم الحديث من العلوم التي نضجت واستوت على سوقها، فمنظومتها المصطلحية منظومة متكاملة متناسقة، إلا أن الناظر في جزئيات هذا العلم يلحظ أن هناك مصطلحات اختلفت استعمالاتها وتوظيفاتها بحسب السياقات المختلفة التي وضعت فيها، ومصطلحات لم تلق حظها من التبيين ربما بحجة أن القوم كانوا أعرف باستعمالاتها فلا ضرورة إذن لبيانها، فكان من أمر هذا المقال أن عمد إلى أحد أهم أركان هذا العلم وهو (علم الرجال) مركزا على أهم مصطلحين يقوم عليهما وهما: (المعرفة والعلم) وما انجر عنهما، متتبعا استعمالاتهما محاولا أن يصوغ تعريفا لكل منهما بحسب ما يقتضيه السياق التاريخي والواقعي، مستفيدا ما أمكن من ركائز المرجعية العربية الإسلامية(القرآن والحديث وكلام العرب)ومن آليات التعريف المتساوقة وهذا المجال المعرفي/علم الحديث، ملاحظا أثر ذلك على قضية الجرح والتعديل؛ لا سيما ما تعلق منها بمصلح المعرفة.

الكلمـات المفتاحيـة: علم الرجال، علم الحديث، المصطلح الأصل، المصطلح الفرع، الإبانة.

للتراث أهمية كبرى في حياة الأمم؛ فهو يعد ركيزة من الركائز الأساسية في ثقافتها وهويتها، لا سيما وقد بات واضحا لدى كثير من الدارسين أن لا قيام لأمة من غير الارتكاز على تراثها في بنائها الحضاري ؛ ذلك لما له من علاقة وطيدة بالذات؛ فالتراث يعد خزانا لا يكف يمدنا بضرورياتنا وحاجياتنا التي إن أحسنا البحث عنها داخله وجدنا أغلبها ماثلا أمام أعيننا ؛ ذلك أن تراثنا هو ذاتنا ؛ فالمستقبل «غيب والحاضر علميا لا وجود له، فلم يبق إلا الماضي الذي هو مستودع الذات وخزان الممتلكات، بما لها وما عليها من ملحوظات وملاحظات، فكيف نعرف إذن الذات إذا لم نفقه التراث؟»[1] (وتعد الدراسات المصطلحية أهم المداخل التي يلج من خلالها الباحث للتراث؛ ذلك لأن مفتاح التراث هو المصطلحات، وأن «مفتاح المفتاح هو الدراسة المصطلحية للمصطلحات، ذلك بأنها تعرف غير المعرف، وهو الأغلب وتدقق تعريف ما عرف فلم يعرف، وهو الأقل»[2].

وفي هذا السياق يأتي هذا المقال الذي يهدف إلى دراسة مصطلحات حقل من حقول المعرفة الإسلامية؛ حقل اكتسى طابعا خاصا من بين الحقول المعرفية التي تركها لنا أسلافنا؛ فهو يمثل نموذجا من بين نماذج أخرى للحقل العلمي المتكامل وذلك لما يمتاز به، خصوصا، من منظومة مصطلحية غنية، وتنوع في المعارف التي تؤسسه، ودقة في الأصول العلمية التي يقوم عليها.

فعلم الحديث كما هو مقرر في مصادره يدخل أول ما يدخل ضمن ما يسمى علم الرواية ؛ و يرجع الفضل في بدء هذا العلم إلى الصحابة رضوان الله عليهم؛ ذلك «لأن الحديث النبوي في حياة المصطفى كان علما يسمع ويتلقف منه ﷺ، فلما لحق ﷺ بالرفيق الأعلى حدث عنه الصحابة بما وعته صدورهم الحافظة ورووه للناس بغاية الحرص والعناية، فصار علما يروى وينقل ووجد بذلك علم الحديث رواية»[3]

إن ضبط الرواية ووزن السند يعدان من أهم فروع علم الحديث لما لهما من قيمة في توثيق النصوص؛ توثيق نسبة؛ أي نسبة النص إلى صاحبه لكون

«النص الذي دارت حوله بحوثهم – كما عبر بعضهم – دينا؛ فكانوا ينظرون عمن يأخذون دينهم؛ مما جعل علوما كثيرة تنشأ لضبط الرواية ووزن السند»[4].

إن حضور المكون الديني في هذا الحقل العلمي يعد أمرا بالغ الأهمية لارتباطه بمسألة الوجود، وجود الخالق على وجه الخصوص، ومن ثم العلاقة بين الإنسان وخالقه، فهذه العلاقة لابد أن ترتكز على أسس متينة لا شائبة فيها.

وقد تفرعت بالفعل وبالنظر إلى هذا الأساس الديني بعض العلوم التي تنتظم في سلك الرواية والسند ولعل أهمها ما اصطلحوا عليه **بعلم الرجال**.

إن ما يلفت انتباه المطالع لمادة علم الحديث يلحظ أن مصطلح علم الرجال قد أخذ . قبل أن يستقر على هذا الاصطلاح . صورا واستعمالات تنبئ بأنه سار في تطوره على نسق معين، واقعا وتاريخا؛ وكل صورة أو استعمال من تلك الاستعمالات كان له ما يبرره عند مستعمليه، فما هي إذن تلك المصطلحات التي سبقت مصطلح (علم الرجال)؟ وما هي المصطلحات التي لحقته؟ ثم هل كان لهذه المصطلحات تعلق بواقع معين؟ وما هي المرجعية التي يستندون إلها في تعريفهم لهذه المصطلحات؟

ينبغي الإشارة إلى أن الأوائل لم يكونوا يكتفون بعرض موادهم العلمية المعرفية عرضا ساذجا مبتذلا بقدر ما كان هناك منهجا يؤسس لذلك العرض بدأ من المنظومة المصطلحية إلى العرض المنهجي القائم على جملة من الأدوات والآليات التي تخص كل مادة؛ إضافة إلى الأدوات والآليات التي تعد قاسما مشتركا بين أغلب المواد.

ولعل أول ما ينبغي بيانه هو ما امتاز به الأوائل من قدرة على **البيان** ؛ذلك أنهم كانوا يبينون عن خبايا أنفسهم **بلغتهم**، على اختلاف أنظارهم وأفكارهم ومناهجهم ؛ إبانة صادقة عن تلك الأنفس والعقول، خصوصا «أصحاب الكتب المبتدأة الموضوعة في العلوم المستخرجة، فإنا نجد أربابها قد سبقوا في فصول منها إلى ضرب من اللفظ والنظم ،أعيا من بعدهم أن يطلبوا مثله أو يجيئوا بشبيه له»[5].

ذلك لأن نظم الكلام على وجه مخصوص يعد مزية بها يتفاوت الكلام بلاغة وإعجازا، كما أن تخير الألفاظ، ويدخل في ذلك الاصطلاح، للتعبير عن

المعاني والمفاهيم ليس بالأمر الهين اليسير، ولا يستطاع إلا بالإحاطة و بالذوق الذي يكتسب بالدربة والمران.

وقد كان الأوائل كما قدمنا ؛شعراء وكتابا، يبينون عن خبايا أنفسهم وعقولهم إبانة صادقة صادرة عن القلب؛ تحمل في تلابيبها مساجلات صامتة خفية كالهمس تارة، ومساجلات عالية جهيرة الصوت تارة أخرى، إلا أن ما يعنينا هنا ليس تلك المساجلات بقدر ما يعنينا أنهم كانوا يمتلكون تلك القدرة أو الخاصية التي تسمى **الإبانة**، فما المقصود بالإبانة إذن؟

بالنظر إلى مجموع ما تقدم يتبين أن **الإبانة** المقصودة هنا هي تلك : **القدرة على إظهار وكشف المراد من الطروحات التي يطرحها أهل فن ما ؛ وذلك باستعمالهم منهجا و ضربا من النظم واللفظ المخصوصين ؛ المصطلح عليها بين قوم مخصوصين بغرض أداء المقصود؛ مراعين في ذلك دلالات المصطلحات القرآنية والنبوية و اللسان العربي المبين.**[6]

فلأهل التفسير **منهجهم** المخصوص ؛ أي **آلياتهم ومفاهيمهم ورؤاهم** المشتركة بينهم، كما أن لهم **نظمهم وألفاظهم(مصطلحاتهم)** المخصوصة التي تميزهم عن غيرهم من أصحاب الاختصاصات الأخرى كأصحاب علم الكلام وأصحاب علم الحديث...

إن المنظومة **المصطلحية بمفاهيمها وتعاريفها**، منظافا إليها المنهج المعتمد؛ ذلك المنهج، و تلك المنظومة التي ابتغاها القوم مطية لتبليغ مراداتهم سواء عن أنفسهم أو جماعاتهم لم تكن بالمنظومة الملقوطة لقطا عشوائيا من هنا وهناك بل كان لها ما يؤسسها كما أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن الإبانة ؛ فأساس ذلك راجع– كما سنرى فيما بعد تطبيقا– إلى اعتمادهم **القرآن أولا** فيما اعتمدوا ثم **الكلام النبوي** ثانيا ثم **اللسان العربي المبين.**

إن الحديث عن الأسس المعتمدة في بناء المنظومة المصطلحية والمنهجية يجرنا للحديث عن ما يسميه الأستاذ الشاهد البوشيخي بالمصطلح الأصل؛ والذي يعني به مصطلح القرآن والسنة البيان[7] ؛ ذلك الذي كان حاضرا في أذهان علمائنا الأوائل، مصطلحا ومفهوما ورؤية، إذ كان مبثوثا في كتاباتهم على تنوعها واختلافها، وهذا ما سنكتشفه في رحلتنا مصطلح **علم الرجال.**

ما قبل مصطلح علم الرجال:

يؤكد دارسوا علم الحديث على أن الإسناد «هو المحور الذي تدور حوله كثير من قواعد نقد الحديث، حيث انصب النقد والملاحظات على الرجال الذين رووا الحديث وتناقلوه خلفا عن سلف ومن هنا اهتم العلماء بالتعريف بهؤلاء الرجال...»[8].

ذلك ما يسمى عندهم بعلم الرجال أو علم أسماء الرجال فإن« العلم بها نصف علم الحديث كما صرح به العراقي في شرح الألفية عن علي بن المديني فإنه سند ومتن والسند عبارة عن الرواة؛ فمعرفة أحوالها نصف العلم على ما لا يخفى»[9].

إذن فقد بات واضحا مدى أهمية هذا العلم/ علم الرجال؛ ومن ثم مدى أهمية الوقوف على كنه هذا المصطلح والصور التي مر بها قبل أن يأخذ شكله الأخير

إن التعريف بالرجال ومعرفتهم يقود بالضرورة إلى مناقشة مصطلح ((المعرفة))؛ فماذا تعني المعرفة عند أهل هذا الفن؟

معرفة...ثم علم:

بتتبع الكتب التي تناولت الرجال/رواة الأحاديث، يظهر أن مصطلح **المعرفة** يحتل حيزا كبيرا في عناوينها، ويمكن أن نتبين ذلك بالرجوع في الزمن إلى بدايات التأليف في هذا العلم، علم الرجال، حيث يتحفنا علي بن المديني(ت234هـ) بكتاب **معرفة** من نزل من الصحابة سائر البلدان، و أحمد بن حنبل الشيباني(ت241هـ) بكتاب العلل و**معرفة** الرجال، و**معرفة** الصحابة لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري(ت382هـ)، وغيرها من الكتب التي تحمل مصطلح معرفة.

ما يلاحظ أولا على عناوين الكتب التي ألفت في هذه الفترة– وهي فترة متقدمة– أن الأمر يتعلق بـ (معرفة) وليس بـ (علم)، بخلاف ما يظهر في مؤلفات أصحاب علم الحديث في فترات لاحقة، حيث نجدهم وظفوا مصطلح **علم** مضافا إلى **فروع**؛ أو لنقل **أنواع** هذا العلم.

وإذا جاز لنا التفرقة بين العلم والمعرفة في كونهما مصطلحين متباينين من حيث المفهوم والرؤية فإن ما يتأسس عليهما يأخذ هو أيضا صفة التباين والاختلاف؛ فكثيرا ما نجد مقولات أو طروحات تتأسس على مصطلحات معينة توحي بادئ ذي

بدء بالتوافق والتداخل إلا أنه وبالعودة إلى استعمالات وتعريفات أهل كل فن نجد أن هناك فرقا دقيقا قد لا يبينون عنه لدواع ومبررات تبدو في نظرهم كافية لذلك.

يفرق صاحب الفروق اللغوية بين المعرفة والعلم؛ في كون المعرفة أخص من العلم لأنها،أي المعرفة ،علم بعين الشيء مفصلا عما سواه ؛ فمعرفة (الشخصية) مثلا هي معرفة بعينه (بذاته)؛ وبالتالي فصله عمن سواه؛ ذلك لأن مصطلح المعرفة «يفيد تمييز المعلوم(الشخصية مثلا) من غيره»[10]. وهذا ما كان حاضرا في أذهانهم عندما عبروا بمصطلح المعرفة فيما يتعلق بمعرفة الصحابة.

وإذن فالمعرفة التي يقصدها العلماء الأوائل، علماء مصطلح الحديث، عندما أطلقوا مصطلح المعرفة على مؤلفاتهم؛ هي معرفة الشخصية/ المعرفة بالأشخاص، وبالأخص معرفة الصحابي من غير الصحابي، وتمييزه بنعوته وأوصافه وأحواله عن غيره.

وهذا التمييز يظهر أثره في كونه يدخل بموجبه إلى دائرة الصحابة من هم أحق بها(الصحبة) ويخرج من ليس له حق في ذلك ؛ لأمر نتبينه فيما بعد.

ولكن على أي إطار مرجعي كانوا يستندون؟

لقد أشرنا في فقرة سابقة، عند الحديث عن الإبانة، أنهم، أي علماؤنا الأوائل، كانوا يعتمدون القرآن كإطار مرجعي أولا والسنة البيان ثانيا واللسان العربي ثالثا، كل تلك الأطر كانت بمثابة معين يمتحون منه مصطلحاتهم ومفاهيمها في أغلب الأحيان حتى يبينوا عن خبايا نفوسهم وعقولهم، سواء على المستوى المنهجي(تنظيمي) أو على المستوى المصطلحي(تعبيري).

يأخذ مصطلح المعرفة في القرآن معنى حسيا، حيث نجده يأتي في مواضع عدة مقرونا بالحواس، بالظاهر؛ ففي القرآن نجد قوله تعالى:﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ **تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ** لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)﴾البقرة: الآية 273.

« (تعرفهم بسيماهم) السيماء والسيمياء والسمة : العلامة التي يعرف بها الشيء واختلفوا في معناها هاهنا فقال مجاهد : هي **التخشع والتواضع** وقال

السدي : **أثر الجهد** من الحاجة والفقر وقال الضحاك : **صفرة ألوانهم** من الجوع والضر وقيل رثاثة ثيابهم»[11].

ونجد في القرآن كذلك قوله تعالى:﴿ الذين آتيناهم الكتاب **يعرفونه** كما **يعرفون** أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾، وهو أبلغ في الاستدلال على ما ذهبنا إليه من كون مصطلح المعرفة قد ورد في القرآن بمفهوم حسي « (قوله تعالى) : الذين آتيناهم الكتاب (يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه) يعرفونه (يعني يعرفون محمدا ﷺ) كما يعرفون أبناءهم (من بين الصبيان، قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام إن الله قد أنزل على نبيه) الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم (فكيف هذه **المعرفة** ؟ قال عبد الله : يا عمر لقد **عرفته حين رأيته** كما عرفت ابني ومعرفتي بمحمد ﷺ أشد من معرفتي بابني....»[12] .

فقد ربط عبد الله بن سلام معنى المعرفة بالرؤية حين سأله عمر بن الخطاب: فكيف هذه المعرفة؟، والرؤية حسية كما لا يخفى، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في ذلك :« وعدل عن أن يقال « يعلمونه » إلى يعرفونه لأن **المعرفة تتعلق غالبا بالذوات والأمور المحسوسة** قال تعالى تعرف في وجوههم نضرة النعيم [13]».

إذن فقد بات واضحا أن علماء الحديث وبالأخص منهم علماء الرجال و أهل الجرح والتعديل منهم على وجه الخصوص كانوا يقصدون بمصطلح المعرفة؛ المعرفة الحسية المتعلقة بالشخصية ؛ بحيث يميزونها عن غيرها **بالوصف** المعين المشخص، **الوصف** الذي يجعل شخصية مستقلة عن الأخرى.

وليس هذا فحسب بل إن الأمر تعدى، الوصف الخارجي وما يتبعه من السمات التي تميز الشخصية / السمات الخارجية (الاسم/النسب/الميلاد/الدار/المصر...) إلى معرفة الأحوال، ولذلك نجد القرآن يركز على الجانب المعنوي في الشخصية يقول تعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، الأعراف الآية: 157.

ومعرفة أحواله/الراوي تقتضي معرفة **المميزات المعنوية(الأحوال)** التي إما أن ترفعه/الراوي وإما أنت تضعه، ومن ثم دلجوا إلى ما اصطلحوا عليه بتعديل الشخصية/الراوي، أو جرحه حتى تقبل روايته أو ترد[14].

المعرفة إذن، في اصطلاح أهل الجرح والتعديل هي: **تمييز للمواصفات الخارجية للشخصية وكذا أحوالها التي تفصلها عن غيرها فتجعلها كيانا مستقلا له وجوده الخاص، بحيث يمكن الحكم لها أو عليها تعديلا أو تجريحا.**

يقول ابن أبي حاتم الرازي:«فلما لم نجد سبيلا إلى معرفة شيء من معاني كتاب الله ولا من سنن رسول الله ﷺ إلا من جهة النقل والرواية وجب أن **نميز** بين **عدول** الناقلة والرواة وثقاتهم وأهل الحفظ والثبت والإتقان منهم، وبين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب واختراع الأحاديث الكاذبة»[15]، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق **المعرفة** ؛ **معرفة** الرواة أي تمييز بعضهم من بعض.

الإطار التاريخي لمصطلح المعرفة:

ولكن، هل يدخل الصحابة رضوان الله عليهم في هذا الاعتبار؟ قد نكتفي بسوق نص للإمام الذهبي رحمه الله يكون جوابا لهذا السؤال.

يقول الذهبي رحمه الله:« وقد كتبت في مصنفي (الميزان) عددا كثيرا من الثقات الذي احتج البخاري أو مسلم وغيرهما بهم، لكون الرجل منهم قد ورد اسمه في مصنفات الجرح.

وما أوردتهم لضعف فيهم عندي، بل ليعرف ذلك وما زال يمر بي الرجل الثبت، وفيه مقال من لا يعبأ به، ولو فتحنا هذا الباب ولو فتحنا هذا الباب على نفوسنا لدخل فيه **عدة من الصحابة والتابعين**.

فبعض الصحابة كفر بعضهم بعضا بتأويل ما والله يرضى عن الكل، ويغفر لهم فما هم بمعصومين، وما اختلافهم ومحاربتهم بالتي **تلينهم عندنا** أصلا، **ولا بتكفير الخوارج لهم انحطت رواياتهم**، بل صار كلام الخوارج والشيعة فيهم حرما في الطاعنين...

ثم قال: فأما الصحابة رضي الله عنهم **فبساطهم مطوي**، وإن جرى ما جرى، وإن غلطوا كما غلط غيرهم من الثقات فما يكاد يسلم أحد من الغلط، ولكنه

غلط نادر لا يضر أبدا، إذ على عدالتهم وقبول ما نقوله في العمل وبه ندين الله تعالى».

سقنا هذا النص على طوله لأن مواضع الاستشهاد منه متفرقة فيه، ولكن لا بد مما ليس منه بد، وإذن فقد ظهر أن الصحابة بهذا الاعتبار غير داخلين تحت مصطلح المعرفة بمعنى التمييز و الجرح والتعديل وإنما معرفة الصحابة يقتضي تمييز الصحابي من غير الصحابي فقط؛ أي من هو داخل في دائرة الصحابة ومن هو خارج عنها.

من هنا ندرك أن مصطلح المعرفة قد كان له اعتبار تاريخي ؛ بحيث يخرج بموجبه الصحابة من دائرة علم الجرح والتعديل ؛ وبهذا يكون مصطلح (معرفة) الموظف في الكتب التي ترجمت للصحابة قد قصد به **تمييز** الصحابة عمن سواهم وتبيين فضائلهم وما امتازوا به عمن جاء بعدهم، أما مصطلح المعرفة الذي ورد في الكتب التي ترجمت لغير الصحابة فيقصد به معرفة أحوالهم من ضعف وقوة وعدالة.

من المعرفة... إلى العلم:

كثيرا ما يأتي مصطلح العلم مرادفا « للمعرفة، إلا أنه يتميز بكونه مجموعة من معارف متصفة بالوحدة والتعميم»[16].

هذا التمييز بين العلم والمعرفة يؤدي للقول بأن **معرفة الأعلام** داخل تحت ما يسمى **بعلم الرجال** وذلك لأن الباحث/العالم بالرجال لا بد له من العودة إلى كتب معرفة الرجال **كإجراء** منهجي حتى يتسنى له بذلك الوصول إلى ما يصبو إليه من حكم على الرجال.

وحقا فالمتأمل في تلك **الفروع** من معرفة للطبقات والجرح والتعديل ومعرفة الأسماء والألقاب والكنى والمؤتلف والمختلف ؛ يتبين له أنها **معارف** تنضوي تحت ما يسمى **بعلم الرجال**، فالأمر يتعلق بالمعرفة إذن ؛ **بالجزئيات** لا بالكليات، بالمحسوس لا بالمعقول ذلك أن المعرفة تختص بالمحسوسات و**المعاني الجزئية**، في حين أن العلم يختص بالمعقولات، **والمعاني الكلية**.[17]

وليس عبثا أن نجد مصطلح **معرفة** يسبق بعض أنواع علم الحديث في كتاب **معرفة علوم الحديث وكمية أجناسه** للحاكم النيسابوري(توفي405هـ) وهو كتاب يؤسس لـ ((علوم الحديث)) في مرحلة متأخرة قليلا، ومن خلال معاينة فهرسه

نجده يؤكد ما ذهبنا إليه في تحليل هذا المصطلح ،مصطلح المعرفة، وذلك عندما يعلقه بما يتصل بعلم الرجال؛ فمن ذلك : في ذكر النوع السابع من علوم الحديث وهو معرفة الصحابة/ في ذكر النوع الرابع عشر من علوم الحديث وهو معرفة التابعين/ في ذكر النوع الخامس عشر من علوم الحديث وهو معرفة أتباع التابعين/ ذكر النوع الثالث والأربعين من علوم الحديث وهو معرفة الموالي...الخ.

يستعمل الحاكم النيسابوري في كتابه مصطلحي : **العلم والمعرفة**

وإذا نحن عددنا هذه المصطلحين من جملة المتقاربات كان لزاما علينا أن نبحث لهما عما يبرر استعمالهما وعما يميزها عن بعضهما من حيث الدلالة و المفهوم.

أما فيما يخص المعرفة فقد قدمنا ما يكفي للدلالة على أنها متعلقة بالتمييز ومعرفة الحال التي تفضي إلى إصدار حكم بالجرح أو التعديل، كما أنها تتعلق بالجزئيات التي تنتظم تحت علم الرجال، هذا من جهة

وأما ما يخص مصطلح علم فقد أشرنا إلى أنه متعلق **بالكليات**، كليات علم الحديث التي تنتظم المعرفة كجزء تحتها وتؤسس له في الوقت ذاته، إن الإحاطة بجزئيات علم الرجال يعطي الصورة الكلية له بحيث يصبح العلم ماثلا في إدراك ووعي الممارس له، وذلك بمعرفة الجزئيات المتمثلة في جملة الأنواع المنتظمة تحته، علما أن علم الرجال ينقسم على نوعين نوع يسمى الجرح ونوع يسمى التعديل، وقد جعل الحاكم النيسابوري الجرح والتعديل من باب العلم فقال :«وهما في الأصل نوعان، كل نوع منهما **علم برأسه وهما ثمرة هذا العلم والمرقاة الكبيرة منه»**[18].(

ويقصد بكونهما نوعين ؛أي أنهما متفقان من وجه و مختلفان من آخر ؛ متفقان من حيث الموضوع ؛ فموضوعهما هو الرجال، **مختلفان** من حيث **النتيجة** و**المنظومة المصطلحية؛ فالجرح نتيجته الترك والتعديل نتيجته الأخذ**؛ ثم إن الناظر في مصطلحات كل علم من هذين العلمين يدرك جيدا أنهما متباينان من هذه الجهة ؛ فأيمة النقل «قد فرقوا بين الحافظ والثقة والثبت والمتقن والصدوق **هذا في التعديل**، ثم **في الجرح فرقوا** بين الكذاب على رسول الله ﷺ والكذاب في حديث الناس...والمتهم في الدين والصدوق إذا أكثر الرواية عن الكذابين وكثر المناكير في حديثه»[19].

إن تكامل المنظومة المصطلحية لحقل من الحقول المعرفية لهو دليل على نضجه واستقراره، وهذا ما نلمسه من خلال هذا النص الذي قدمنا؛ فإذا كانت المصطلحات مفاتيح العلم كما هو مقرر فلا شك أنها مفاتيح علم قد نضج.

العلم متعلق بالكليات إذن ؛ و**معرفة علوم الحديث** تقتضي الإحاطة بجزئياته المتمثلة في تلك الآليات التي تمكن المشتغل بهذا العلم من الحكم على الحديث سندا ومتنا، أما عد الحاكم الجرح والتعديل علما فذلك لأن الأمر« يتعلق ببيان مرتبة الرواة من حيث تضعيفهم أو توثيقهم **بتعابير فنية متعارف عليها** عند علماء الحديث وهي **دقيقة الصياغة ومحددة الدلالة** مما له أهمية في نقد إسناد الحديث»[20].

هذا التعريف يبين عن العلم/المنهج في التعامل مع الرواة وذلك بتعابير فنية متعارف عليها عند علماء الحديث، وهي دقيقة الصياغة ومحددة الدلالة أيضا مما يمنع الشطط والعدول عن الجادة أثناء ممارسة عمليتي الجرح والتعديل، وهذا هو **المنهج**.

إذن فقد سموا الجرح والتعديل **علما** من باب أن له: قواعد **ينضبط بها ومصطلحات يمتاز بها عن غيره من العلوم**، وأما ما أطلقوا عليه **معرفة** فهو: **من باب الفروع والجزئيات**، إذ المعرفة تدخل فرعا تحت مسمى العلم ؛ فبهذا يكون العلم عاما في تمييز الرجال والمعرفة خاصة بجوانب منه.

ثم إن إطلاق مصطلح العلم على عملية الجرح والتعديل يعد أمرا بالغ الدقة في اعتبار العلم متضمنا للمنهج، ومن هنا كان تعبيرهم بالمعرفة تارة وبالعلم أخرى نابع من تمييزهم للمفاهيم والرؤى التي أسسوا عليها هذين المصطلحين، زد إلى ذلك مراعاتهم تطور الحقول المعرفية إلى مناهج لها آلياتها ومفاهيمها ورؤاها؛ حتى صارت تخصصا.

بقي أن نشير إلى أن علماء مصطلح الحديث يستعملون مصطلح النوع للدلالة على تفرعات علم الحديث وفي ذلك إشارة إلى مسألة التخصص، وهو ما نلمسه في إفرادهم كتبا لبعض أنواع علم الحديث خصوصا ما تعلق منها بمعرفة الرجال.

خاتمة:

فهل يمكن بعد هذا؛ القول بأن الأوائل كانوا يعتبرون (العلم) هو المنهج والقواعد المتبعة في تخريج الحديث؛ نعني القواعد برمتها، وأن بعض الأنواع هي تخصصات علمية لها قواعدها وأدواتها الإجرائية الخاصة بها. كعدهم علم الجرح والتعديل تخصصا علميا داخلا تحت علم الحديث ولذلك سموه نوعا

أما المعرفة /المعرفة الجزئية فهي الأجزاء الداخلة في تركيب المنهج، وينبغي على المشتغل بهذا العلم تحصيل تلك المعارف حتى يتمكن من تلابيب المنهج.

لمصطلح المعرفة متعلقان:

- تعلق بالصحابة ويقصد به التمييز لا غير
- تعلق بغير الصحابة من الرواة ويراد منه الجرح والتعديل

لقد تطورت بعض المعارف إلى أن أصبحت علما له منهجه الخاص ومصطلحاته، إلا أنه بقي يتصل بالنسب إلى الدائرة الكبرى/علم مصطلح الحديث، وهذا دليل النضج والاستقرار.

علم الرجال هو أساس علم الحديث وبه كانت بدايته.

لاحظنا أن المكون الديني هو مكون أصيل في المنظومة المعرفية الإسلامية لاسيما في ضبط الحدود والتعريفات ومن ثم النتائج المتوخاة.

علماء الحديث كانوا أحرص من استحضر المكون الديني في صياغة هذا العلم لا سيما علم الرجال وهذا يدل على أنهم كانوا واعين بأنهم بخطورة ما سيأتي بعد.

---

[1] الشاهد البوشيخي: دراسات مصطلحية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط01، 1433هـ/2012م، ص20.

[2] المرجع نفسه، ص 21.

[3] نور الدين عتر: منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر، ط02، 1399هـ/1979م، ص26.

[4] الشاهد البوشيخي: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين، ،عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ص47.

[5] أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني: الرسالة الشافية ضمن سلسلة ذخائر العرب، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، تح وتع: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط03، ص140.

[6] لمزيد من التوسع، ينظر: محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص06 ومابعدها.

[7] لمزيد من التوسع، ينظر: الشاهد البوشيخي: دراسات مصطلحية، ص220.

[8] أكرم ضياء العمري: بحوث في تاريخ السنة المشرفة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط05، 1405هـ/1984هـ، ص58.

[9] حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج01، ص87.

[10] لمزيد من التوسع، ينظر: أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، ص80.

[11] أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: تفسير البغوي « معالم التنزيل»، تح : محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض،1409هـ، مج01، ص338.

[12] المرجع نفسه، ص 164.

[13] الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج02، من الكتاب الأول، ص40.

[14] لمزيد من التوسع، ينظر: الإمام ابن أبي حاتم الرازي: تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، دار الكتب العلمية، ص: أ، ب ،ج.

[15] المرجع نفسه، ج 01، ص 05.

[16] أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ص 80.

[17] لمزيد من التوسع، ينظر: أبو حيان التوحيدي: المقابسات، تح وشر: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، الكويت، ط02، 1992م، ص 272.

[18] أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري: معرفة علوم الحديث وكمية أجناسه، تح: أحمد بن فارس السلوم، دار ابن حزم، ط 01، 1424هـ/2003م. ص225.

[19] أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري المدخل إلى الصحيح ، تح: ربيع بن هادي عمير المدخلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ /1984م، ط01، القسم الأول، ص113.

[20] أكرم ضياء العمري: بحوث في تاريخ السنة المشرفة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط05، ص91.